(٣٧)

"نضوج"

كان هو متعجلاً للبلوغ وللنضج راغبًا فى الابتعاد عن الطفولة بما فيها من لهوٍ ولعبٍ وعدم تحملٍ لأدنى مسئولية، بينما كان صديقه الوسيم المترف منغمسًا فى لهو ولعب الطفولة رافضًا أن يتركهما رغم مضى السنوات. وظلا سويًا لا يفترقان طوال فترة مراهقتهما وفتوتهما البهية، ثم بعد ذلك افترقا كلٌ منهما فى طريقه حتى التقيا مرة أخرى بعد عدة سنوات وقد بلغ كل منهما أشده. فصافح كلٌ منهما الآخر فى تلهفٍ، واعتصرهما الفضول لمعرفة حال بعضهما البعض بعد أن بدأ الشيب يغازل رأسيهما. وبادر هو بسؤال صديقه الوسيم "سابقًا"عن حاله مع اللهو واللعب والحياة المترفة، فأجابه أنه مازال ينعم بهما مستمتعًا بالحياة وملذاتها من سهرٍ وصخبٍ وعلاقات نسائية وسفرٍ وتجوال ... فما أجمل الحياة إذا توفرت متعها جميعها بلا انقطاع! وبينما كان يستمع لإجابة صديقه عن سؤاله أخذ يحملق فى وجهه ويدقق فى عينيه، فلم يجد أية ملامح للسعادة الناتجة عن النعيم المفرط الذى يدعيه فى كلامه، بل وجد علامات تقدم السن ووهن العظام المبكر وضعف الصحة الذى يعم كافة الجسد وكأنه يعانى من أفتك الأمراض.

ولأنه كان معتادًا مع صديق طفولته على الصراحة والوضوح، لم يتوانَ عن التعليق على ما أظهره صديقه المترف من كلام لا يتوافق مع هيئته وحاله

الذى رآه فيه. فقال له: " ولكنى أراك مرهقًا ومتعبًا وشاحب الوجه، وأشعر وكأنك تميل إلى الترنح، فهل ذلك بسبب عملك لفترات طويلة؟" فأجابه صديقه باندهاش وتعجب: " أعمل لفتراتٍ طويلة؟! .. لا .. لا.. أنا لا أعمل فقد حصلت على الشهادة الجامعية بعد سنواتٍ عديدة من الرسوب، ولم أكن راغبًا فى الحصول عليها لولا إلحاح والدى، فما أن حصلت عليها بعد طول عناء، حتى قررت ألا أرهق نفسى فى عملٍ لا أحبه، ولكننى تزوجت وأنجبت طفلين، وانفصلت عن زوجتى بسبب إصرارها على موضوع العمل هذا الذى تسألنى عنه، وها أنا الآن حرٌ طليق كالعصفور لا يستطيع أحد أن يرغمنى على فعل شيء لا أريده، بل أستمتع بكل لحظة فى عمرى وكأنها اللحظة الأخيرة فيه بلا مسئوليات ثقيلة أو منغصات للعيش."

فهز صديقه رأسه ليفكر قليلاً، ثم قال له: " نعم يبدو أنك مستمتعٌ حقًا بحياة الطفولة التى ما زلت تحياها، وتصر أن تمكث فيها للأبد، ولكن ماذا ستفعل عندما يأتيك هادم اللذات يومًا ما فجأة، لتجد نفسك وقد أمضيت عمرك كله طفلاً صغيرًا لم ينضج بعد ولم يعِ الحكمة من وجوده فى الحياة؟!" ولم تكد جملته الأخيرة هذه تنتهى، إلا وصديقه قد بادر مسرعًا بتوديعه غير ملتفتٍ وراءه، وغيرمكترثٍ بأية كلمة من كلماته.